บทความทางวิชาการ

قراءة في مغزى التاريخ والحضارة

عبد الرزاق سليمان محمد أحمد*

ملخص

يوضح هذا المقال مفهوم التاريخ والحضارة، ونسبة للخلط وتداخل مفهوم كل علم في الآخر لذلك أردت الفصل بين المفهومين حتى يتبين للقارئ اختصاص كل علم وما هو القاسم المشترك بينهما، وسوف أتبع في هذا المقال المنهج التاريخي وذلك بجمع المادة العلمية من بطون المصادر والمراجع ثم دراستها وتحليلها، وقد توصلت من خلال هذه الدراسة إلى أن التاريخ والحضارة يشتركان في دراسة وتحليل التجربة الإنسانية من الماضي لفهم الحاضر لتخطيط المستقبل.

บทคัดย่อ

บทความหัวข้อเรื่องนี้มีวัตถุประสงค์ เพื่อสร้างความกระจ่างเกี่ยวกับประวัติศาสตร์และอารยธรรม ซึ่งก่อให้เกิดความเข้าใจในศาสตร์แทบทุกแขนง ฉะนั้น ผู้เขียนใคร่สร้างความกระจ่างและความเข้าใจระหว่างสองสิ่งนี้แก่ผู้ที่มีความรู้ในทุกแขนง ว่าเป็นสิ่งที่เหมือนกันหรือแตกต่างกัน และในขณะเดียวกันใคร่ให้ผู้อ่านได้ร่วมกันวิเคราะห์ในเชิงประวัติศาสตร์จากวิชาการความรู้หรือแหล่งข้อมูลต่างๆ แล้วนำมาศึกษาวิเคราะห์ เพื่อให้เกิดผลเกี่ยวกับประวัติศาสตร์และอารยธรรม และวิเคราะห์ศึกษาพฤติกรรมของคนรุ่นหลัง เพื่อให้เกิดความรู้ในวันข้างหน้า

المقدمة

منذ أن خلق الله سبحانه وتعالى الكون وسخر ما فيه لخدمة الإنسان الذي خُلق لعبادة الله تعالى ثم إعمار هذه الأرض، فظهرت العديد من الأمم والشعوب التي جاءت في بداية العصور السحيقة وبدأت بتطوير نفسها فعرفت كيف تُسخر كل ما في الكون لصالح حياة مستقرة وآمنة، وبالتالي ظهرت لها العديد من النشاطات في مختلف المجالات وهنا بدأ العقل يعمل لإخراج نفسه من الحياة الأولى التي تحمّل فيها كل أنواع الشقاء والصعوبات حتى وصل لمرحلة الاختراع والاكتشاف، وتلقائياً كان التاريخ يكتُب نفسه وذكر كل ما كان في الماضي من حياة الإنسان ثم ظهرت حضارته التي وصلت به لمرحلة أرقى من ذلك وأفضل، إذن عمل التاريخ والحضارة هو الإنسان، فما هي علاقة التاريخ بالحضارة.

* دكتوراه في التاريخ، محاضر بقسم التاريخ والحضارة بمرحلة ماجستير جامعة جالا الإسلامية.

مفهوم التاريخ

جاء في كتب اللغة: أرخ: التأريخ تعريف الوقت والتوريخ مثله، أرخ الكتاب ليوم كذا وقته، وقيل: إن التأريخ الذي يؤرخه الناس ليس بعربي محض وإن المسلمين أخذوه عن أهل الكتاب، وتأريخ المسلمين أُرخ من زمن هجرة سيدنا رسول الله ﷺ كُتب في خلافة عمر رضي الله عنه فصار تاريخاً إلى اليوم. (ابن منظور، د.ت، ج3، ص: 4، الفيروز آبادي، 1994، ص: 248).

ولكن كلمة التاريخ هي مصطلح عربي فقد ذُكر: إن تأليف التاريخ الإسلامي من إبداع العرب، لقد فشلت المحاولات للعثور على مؤثرات خارجية، يونانية أو فارسية، على غرار ماكُشف عنه المنقبون من مؤثرات أجنبية في الفلسفة وعلم الكلام ، ليس التاريخ الإسلامي نقلاً أو اقتباساً أو استعارة من الغير، إن كلمة "تاريخ" كلمة عربية، والكلمة الأجنبية اسطوريا التي كان من الممكن استعارتها، استعملت فعلاً، لكن في معنى آخر للتعبير عن القصص الخيالية التي لاتخضع لقوانين المراقبة والفحص والتدقيق، كحوادث التاريخ القريبة والبعيدة (محل، 1997، ص: 79).

وتاريخ: ج تواريخ يوم أو أجل محدد ينبغي أن تكون في الميقات في التاريخ المحدد، الأحوال والحوادث التي تمر بها على الأمم والمجتمعات (الفوزان، 2005،ص: 75).

وقيل التأريخ: تعريف الوقت قيل: إنه مقلوب من التأخير فتاريخ كل شيئ غايته ووقته الذي ينتهي إليه (البستاني، 1980، ص: 9).

وأرخ : الكتاب حدد تاريخه، والحادث ونحوه، فصل في تاريخه وحدد وقته، والتاريخ: جملة الأحوال والحوادث التي يمر بها كائن ما، ويصدق على الفرد والمجتمع، كما يصدق على الظواهر الطبيعية والإنسانية، التأريخ: تسجيل هذه الأحوال، المؤرخ: علم التاريخ (أنيس، 1960، ص: 13) وعلى ذات السياق قال الرازي عن التأريخ والتوريخ: تعريف الوقت تقول أرخ الكتاب بيوم كذا وورخه بمعنى واحد (الرازي، 1986، ج1، ص: 5).

ونجد أن كلمة تاريخ لها أصل ومعنى مشتق من القمر والشهر وبذلك يصبح معنى الكلمة: التوقيت حسب القمر، إي الاستعانة بظهور هلاله لتحديد اليوم والشهر وتطور الأمر إلى الإشارة بكلمة التاريخ إلى الحقبة، لذلك جمعت الكلمة بين الزمن والحقبة، وأن تاريخ استخدامها مواكب تماماً لاستخدام التقويم الهجري الذي استخدمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه (الحلواني، 1999، ص: 12).

يتضح مما تقدم من التعريفات التي جاءت في كتب اللغة أن التاريخ هو توضيح للوقت بصفة عامة، أما بصفة خاصة فهو يذكر الحوادث التي وقعت سواء للأفراد أو الجماعات، فالتاريخ بذلك كتاب يحدد وقت حدوث النشاط الإنساني أو الظواهر الطبيعية، إذن هو ليس سوى كتاب يُسجل كل ما يقع في هذا الكون من حوادث تؤكد مدى فهم الإنسان لما يحدث حوله.

والتاريخ عند السيوطي هو ربط الأحداث بالزمن، أو بتعبير آخر هو وضع علامات على مسيرة الزمن لتحديد وقت وقوع الأحداث، تماماً كما توضع العلامات على الطريق الطويل لتحديد مكان القرى والمدن، فالعلامات على الطريق تحدد المكان ، والعلامات في مسيرة الزمن لتحديد وقت أو زمن أو حين تقع فيه الأحداث أو الوقائع (السيوطي، د.ت ، ج1، ص: 10).

أما التاريخ عند الطبري هو الدنيا زمان وحدث، فالزمان هوساعات الليل والنهار، ومجموع الزمان والحدث هو التاريخ أما دراستهما معاً فهو التأريخ وتعني دراسة الماضي، أما تاريخ بدون همزة على الألف ــ تعني الماضي نفسه (الطبري، 1967، ج1، ص:9).

ويوضح الألوسي: أن تاريخ الشيئ (في اللغة) يعني غايته ووقته الذي ينتهي إليه، وأنه إثبات الشيئ (الألوسي، 1925، ج3، ص: 214).

ويذكر السخاوي: أن التاريخ :في اللغة العربية التاريخ والتأريخ والتوريخ يعني الإعلام بالوقت، وقد يدل تاريخ الشيئ على غايته ووقته الذي ينتهي إليه زمنه ، ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة. وهو فن يبحث في وقائع الزمان من ناحية التعيين والتوقيت وموضوعه الإنسان والزمان، ومسائله أحواله المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة للإنسان وفي الزمان (السخاوي، 1979، ص :7).

وتعريف التاريخ عند ابن خلدون هو "أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال، مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما ينحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال" (ابن خلدون، 1993، ج1، ص: 35).

والتاريخ بهذا المفهوم عند ابن خلدون يعني انتقال الإنسان من شكل الحياة البدائية التي يكون فيها البشر في حالة من البحث الدائم عن مصادر الرزق إلى حالة الإستقرار التي تنشأ نتيجة لكثرة موارد الرزق، والحالة الأخيرة تؤدي إلى اجتماع الناس في مجتمعات صغيرة أول الأمر سواء في المدن أو القرى، ثم ظهور المدن الكبرى والتي بسببها يظهر العمران فيؤدي للتنافس فيما بين أفراد المجتمع، ونرى هذا التنافس في كسب البشر لمعاشهم سواء في التجارة أو الصناعة أو بتعلم مختلف العلوم التي تساعد على تطور الحياة البشرية في كافة المجالات.

كذلك نجد تعريف آخر للتاريخ عند ابن خلدون وهو كما يقول: "اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يروم في أحوال الدين والدنيا" (ابن خلدون، 1993، ج1، ص :10).

يتبين من تعريف ابن خلدون السابق أن جوهر التاريخ هو دراسة وكشف أحوال الأمم والشعوب السابقة في العصور الماضية، ويهدف إلى الاستفادة بما خلفه السابقون من الأعمال التي

تحمل طابع الخير للبشرية، بعد أن ارتبط الجميع في مجتمعات يعمل الجميع لأجل هدف أسمى وهو تغيير حياة الشعوب إلى الحياة التي تتوفر فيها كل أشكال الاستقرار.

وعلى نفس هذا النسق نجد أن التاريخ هو حياة الشعوب ، ومن ثم فهو ينقل لنا كل ما هو يتجدد في واقع المجتمعات، وبالتالي فهو يوضح انسجام الإنسان مع بيئته، ويشمل ذلك عصارة فكره ونتاج تجاربه وتفاعله مع ما حوله من ظواهر وظروف تحيط بهذا الإنسان (النبراوي، 2000، ص: 23).

وهذا ما ذكره الجبرتي فقال: إنه علم يبحث فيه عن معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائعهم وأنسابهم ووفياتهم (الجبرتي، 1322، ص: 2).

ويؤكد هذا ابن بشر عن علم التاريخ فقال: علم شريف فيه موعظة واعتبار، واطلاع على حوادث الدهر الدوار ، ومعرفة أحوال الماضيين مما يوقظ الأذهان والأفكار، ويقيس العاقل نفسه على ما مضى من أمثاله في هذه الديار (ابن بشر، د.ت، ج2، ص: 2).

نأخذ مما سبق أن التاريخ يسجل كل ما يحدث للإنسان في المجتمع الذي ينتمي إليه، ويوضح كيف استطاع هذا الإنسان أن يستغل بيئته بالطرق التي تساعده على تطوير نفسه وغيره، فنعرف من خلال ذلك ما هي النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي توصل إليها عن طريق الفكر الذي تبناه للوصول لهذه النظم، وهذا الفكر لا يمكن التوصل إليه إلا من خلال التفاعل مع هذه البيئة.

ومن خلال ما قيل عن التاريخ فإن موضوعه أحوال الأشخاص الماضية من الأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء والشعراء والملوك والسلاطين وغيرهم، والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضية وفائدته العِبرة بتلك الأحوال وأخذ النُصح منها ، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن (السيوطي، د.ت، ج1، ص: 10).

ويرى حسين مؤنس أن موضوع التاريخ هو: دراسة التجربة الإنسانية على وجه الأرض منذ ظهر الإنسان على هذا الكوكب إلى يومنا هذا ، ويستتبع هذا دراسة تاريخ الأرض نفسها قبل ظهور الإنسان والتطور الذي طرأ عليها وجعل حياته فيها ممكنة ، ويقتضي هذا تتبع حياة النوع البشري منذ كان يعيش وحشياً معتصماً بالغابات يعيش على أغصانها وثمارها أول الأمر (مؤنس، 1978، ص: 64).

نرى مما ذكر الإمام السيوطي والدكتور حسين مؤنس أن موضوع التاريخ هو نشاط الإنسان منذ وجوده على هذه الأرض ، فنحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وسخر له كل ما في هذا الكون، ومنذ تلك اللحظة بدأ الإنسان في صقل عقله واخراج نفسه من الحياة الأولى التي كانت بين الكهوف والصحاري يجمع غذاءه ، واستطاع بعد ذلك أن ينجح في السيطرة على البيئة، وبالتالي تطور الإنسان الحالي بفضل المجهود الذي بُذل في القرون الأولى، لذلك تتبع التاريخ حياة الإنسان مرحلة بمرحلة حتى وصل لتعمير هذا الكوكب في كل المجالات،

إذن فالتاريخ يوضح الأعمال التي خلفتها الشعوب والأمم الماضية ، وتُكمل الأجيال في الحاضر والمستقبل ما بدأه الإنسان في الماضي.

ويؤكد ابن خلدون إن وظيفة التاريخ الأساسية هي وصف النشاط الإنساني منذ قديم الزمان فيقول: "أما بعد، فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، وتُشد إليها الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال ، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لايزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف فيها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يُعد في علومها وخليق" (ابن خلدون، 1993، ج1، ص: 3-4).

ونستخلص من كلام ابن خلدون إن التاريخ يكشف حركة الإنسان في الماضي للاستفادة منها في الحاضر لنكتشف بها ما في المستقبل، لذلك يتداوله الناس على مختلف مستوياتهم الاجتماعية، لأنه يحتوي على جانبين في الظاهر أخبار الأمم السابقة وفي الباطن دراسة وتحقيق وإظهار للخفايا والأسرار لما جرى من الحوادث والوقائع والأخبار، وكل ذلك ممثلاً في مظاهر النشاط الإنساني من الماضي البعيد إلى الحاضر الذي يُكتب فيه ولتوضيح الأمور وتفسيرها في المستقبل.

ويظهر هذا المفهوم في حديث الدكتور حسين مؤنس فيقول : "التاريخ يقترن في الأذهان بالماضي وحده، وهذا مفهوم قديم لم يعُد يأخذ به أحد من أهل التاريخ، لأن التاريخ هو الحركة: حركة الكون وحركة الأرض وحركة الأحياء والناس على سطح الأرض، وما تستتبعه هذه الحركة الدائمة من تغير دائم، وحيث إن الحركة في تغير مستمر منذ أن بدأ الله سبحانه وتعالى الخلق إلى أن يطوي الأرض وما عليها، فإن التاريخ أيضاً متصل منذ الأزل إلى الأبد، وهو يشمل الماضي والحاضر والمستقبل جميعاً، فكله تاريخ وكله ميدان عمل المؤرخ، وهو نهر الحياة المتدفق الجاري المتجدد دائماً بما تأتي به منابعه وما تأتي به روافده" (مؤنس، 1978، ص:121).

مفهوم الحضارة

تكتسب الحضارة قيمتها باعتبارها الهدف الأسمى في تطور المجتمعات الإنسانية، والمحير أن المفهوم ذاته مازال غامضاً، فما مفهوم الحضارة؟ وهي تختلف باختلاف الزمان والمكان الذي يُطرح فيه هذا السؤال. وقبل أن نتدرج في تعريفات الحضارة، لابد من معرفة معنى الحضارة في اللغة، ثم نتعرف عليها في الاصطلاح بعد ذلك.

يشير لفظ الحضارة عند أصحاب اللغة إلى أن الحضر: خلاف البدو، والحاضر: خلاف البادي، وفي الحديث: لايبيع حاضر لبادٍ، والحاضر: المقيم في المدن والقرى، والبادي: المقيم في

البادية، ويقال: فلان من أهل الحاضرة وفلان من أهل البادية، وفلان حضري وفلان بدوي، والحِضارة: الإقامة في الحضر (عن أبي زيد) وكان الأصمعي يقول: الحَضارة بالفتح، قال القطامي:

فمن تكن الحضارة أعجبته فأي رجال بادية ترانا

ورجل حضير: لايصلح للسفر، وهم حضور أي حاضرون، وهو في الأصل مصدر، والحَضَر والحَضْرة والحاضرة: خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار (ابن منظور، د.ت، ج2، ص: 906. 907) وانظر كلاً من الفيومي، 1978، ج1، ص: 169،، الرازي، 1986، ص:41،، (الفيروزآبادي، 1994، ص: 481).

ونجد الفرق بين البدو والحضر يتكون من المكان وشكل الحياة، حيث البدو يقيمون في الصحراء ويعملون في جلب ما هو ضروري لهم ويحفظ لهم الحياة ، أما الحضر يقيمون في المدن والقرى ويعملون فيما يحفظ لهم الحياة أيضاً، إلا أنهم يتجاوزون ذلك إلى ما هو زائد على متطلبات الحياة ، ويسمى هذا بالدعة والرفه، ويتمثل في المأكل والمشرب والملبس والمسكن وكل ما يُدخل الإنشراح إلى النفس، والعقل هو القاسم المشترك بينهما والبيئة هي التي تحدد شكل الحياة.

والحضارة عند ابن خلدون هي: "التفنن في الترف واستجادة أحواله، والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه كالصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفراش أو الآنية ولسائر أحوال المنزل، وللتأنق في كل واحدٍ من هذه، صنائع كثيرة لايحتاج إليها عند البداوة وعدم التأنق فيها" (ابن خلدون، 1993، ج1، ص: 293).

نرى أن الحضارة بهذا المفهوم تعني تعاون الأفراد في مجتمع ما فيما بينهم بعد تكوينه، وعندها سوف تظهر أساليب متعددة لبناء حياتهم بأفضل السُبل، مما يعني بعد ذلك التنوع في مظاهر الحياة كما ذكر ابن خلدون، ووجود صنائع لم تكن حياة البادية في احتياج إليها، ونرى الحضارة بهذا الشكل تنحصر في الإقامة في المدن واستحداث وسائل متعددة للحياة.

ونجد قريباً من هذا المعنى عند غوستاف لوبون حيث يقول: ومع أن اجتماع النوع الإنساني ضروري وطبيعي فإن أجيال الناس مختلفون في أحوالهم باختلاف نحلهم في المعاش، فمنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والإبل، وهم أهل البادية الذين تلجئهم الضرورات إلى طلب المسارح والمراعي لحيواناتهم التي يعيشون بنتاجها، ويكون اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم، ومعاشهم بالقدر الذي يحفظ الحياة ، ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك ، وما تزال طرق معايشهم وعاداتهم وطبائعهم كما كانت منذ آلاف السنين (لوبون، 1969، ص: 78).

إلا أن ول ديورانت (1949، ج1، ص: 3) يُعرف الحضارة بأنها: "نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وهي تبدأ حيث ينتهي الإضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمن

الإنسان من الخوف تحررت في نفسه دوافع التطلع، وعوامل الإبداع والإنشاء، وحينئذٍ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وإزدهارها".

ونتيجة لانتقال الإنسان من حِقبة الإضطراب والخوف إلى فترة الإستقرار ظهرت الحضارة وهذا ما يقوله الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ويرى: أن الحضارة هي ثمرة التفاعل بين الإنسان والكون والحياة ، عن طريق الجهود التي يبذلها الإنسان لاستغلال المكونات التي من حوله، في نطاق انتقاله من حياة البداوة وبساطتها، إلى حياة العمران وتعقيداتها، وتزداد اتساعاً وعمقاً كلما ازدادت بأصحابها بُعداً عن طبيعة البداوة ومستلزماتها، وذلك في سبيل تحقيق مقومات المجتمع الإنساني وبث أسباب الخير والسعادة فيه (البوطي، 1987، ص: 19).

لذلك هناك ارتباط بين الإنسان وقيام الحضارة وهذا ما صرح به الدكتور حسين مؤنس فقال: الحضارة هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصوداً أم غير مقصود، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية (مؤنس، 1978، ص: 13).

من جهة أخرى تم الربط بين المجتمع والحضارة، فالمجتمع مجموعة من الناس تنشأ بينهم علاقات دائمة بدافع مصالحهم، والناس بدافع هذه المصالح وحاجتهم إلى تلبيتها يحتاج بعضهم إلى بعض، وتقتضي المصلحة أن ينظر الطرفان إلى الأمر نظرة واحدة ويعدانه مصلحة لكليهما، ولاتكون النظرة واحدة إلا إذا كانت مفاهيمها إزاء الأمر نفسه واحدة ، فإذا توحدت مفاهيم الناس توحدت نظرتهم وبالتالي توحدت المصلحة عندهم، ولهذا قامت العلاقات بينهم وقام المجتمع ونشأت الحضارة باعتبارها صورة هذا المجتمع في مفاهيمه وأفكاره وقوانينه وأنظمته (بطاينة، 1985، ج2، ص: 20).

وإذا كان المجتمع هو السبب في ظهور الحضارة لأنها تشمل أوضاع الناس في النواحي السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والفنية، فهو يعني نتاجاً للتفاعل بين الانسان وبيئته، ومن الطبيعي أن يكون هذا النتاج متبايناً بتباين البيئات وطريقة التعامل معها، و لم يخفف الاتصال منذ بداية التعاون في العصور السحيقة من هذا التباين، لأن التعاون كان محدوداً بالعلاقات الاقتصادية التجارية التي اقتصرت على تبادل المواد الثمينة والتي لم تكن لتمس حياة جمهرة الناس، بل اقتصر استخدامها على الطبقة العليا (بدر، 2002، ص: 5).

كما ينظر للحضارة من جانب آخر وهي تطور الوسائل المختلفة التي تحقق خدمة الإنسان ورفاهيته، وتختلف الحضارة باختلاف تطور هذه الوسائل وباختلاف مفهوم خدمة الإنسان، ويرى الماديون في الآلات أنها وسيلة التطور، كما يرون في الحصول على الشهوات وتأمين المصالح الخاصة بأنها من ضمن خدمة البشر ، بغض النظر عن الطرق التي يحصلون بها عليها، وما ينتج عنها من نتائج اجتماعية، أما المسلمون فيرون في الوسائل التربوية والمادية المجال للتطور، ولا تنفع الثانية دون الأولى، ويمكن الحصول عليها بالطرق الشرعية، وهي ما تكون في

إطار خدمة الإنسان، مع الأخذ في الاعتبار لسلامة المجتمع والنتائج الإيجابية الصحيحة (شاكر، 1985، ج9، ص: 148).

وهناك من يرى أن الحضارة تتمثل في كل ما ينشئه الإنسان في كل ما يتعلق بنشاطه عقلاً وخلقاً، مادة وروحاً، دنيا وديناً، وقد تكون قصة الإنسان في كل ما أنجزه على اختلاف العصور وتقلب الأزمان، وما صورت به علاقته بالكون وما وراءه، وتختص بتراث جماعة من الناس أو أمة من الأمم تميزها عن غيرها من الجماعات والأمم (الكروي، 1984، ص: 13).

والحضارة قد تعني العمران وهو ارتفاع مستوى الحياة، وهذا الارتفاع في مستوى الحياة لابد أن ينعكس على السلوكيات والأخلاقيات ، فتكون أرقى، ولذلك كان المتحضر أو المتمدن أيضاً هو الإنسان المهذب، وكان التحضير أو التمدين معناه "التغيير من حالة البداوة ، وتعليم الأخلاق والسلوكيات والعادات والقوانين الطيبة ، وكذا تعليم العلوم والفنون، أو نقل الإنسان من حالة البربرية أو البدائية أو التخلف إلى التنوير" (عبود، 1981، ص: 22-23).

وبهذا تعتبر تجسيداً عملياً للنشاط الفكري عند الإنسان عبر اجتيازه معارج الحياة، وتاريخ الحضارة سجل لتطور عطاء هذا الفكر ومدى فعاليته في مختلف نواحي الحياة، من اقتصادية وسياسية واجتماعية وإدارية وحربية وعمرانية وأدبية، كما تتناول الحضارة إلى جانب ذلك وسائل إنتاج الإنسان ومستوى معيشته وفنونه الجميلة ومعتقداته الدينية، وكيفية تحصيله علومه وطرق صياغة آدابه، ووسائل كفاحه المستمر مع نفسه أولاً ومع الطبيعة ثانياً من أجل البقاء، فمقياس الحضارة الإنسانية هو إمكانية صراع الإنسان مع نفسه ومع الطبيعة، وطرق آدائه لحاجاته المختلفة، واختصاره الزمن لبلوغ حياة أبقى وأنقى وأرقى (ياغي، 2001، ص: 47).

لذلك هي تُطلق على مظاهر رقي الإنسان في كافة النواحي الأدبية والعقلية والروحية والمادية، وبهذا المعنى يظهر التقارب بين المدنية والحضارة، فالأمة المتحضرة هي الأمة المتقدمة فكرياً وثقافياً، وتستطيع أن تُسخر الجانب المادي لسعادة الإنسان ورفاهيته، فالحضارة تمثل الجانب المعنوي من تقدم الأمة، بينما المدنية تمثل الجانب المادي في هذا التقدم (ياسين، 1992، ص: 15).

وإذا كانت الحضارة هي التراث التاريخي الذي يتضمن العقائد والقيم التي ترسم للحياة غاية مثلى ومغزى روحياً عميقاً، فهي لاتتقيد بحدود الزمان والمكان، لأنها تركيب وجداني يتمثل في القيم الروحية العليا التي تطور مجتمعاً ما وكل ما يدور حول ذلك من جوانب غيبية وجمالية وأخلاقية (الشرقاوي، 1985، ص: 18).

ومن جانب آخر ينظر إلى الحضارة على أنها حصيلة جهود الأمم كلها أو ما وصلت إليه جماعة من الجماعات في مختلف نشاطها الفكري والعقلي من عمران وعلوم، ومعارف وفنون وما إلى ذلك من الإستكشاف والإختراع والتنظيم والعمل على استغلال الطبيعة ، والتقدم بها في سُبل الحياة للوصول إلى مستوى حياة أفضل، وهي الغاية التي تريدها بإمكانياتها المختلفة (شلبي، 2004، ص: 7) وانظر(أبو خليل، 1993، ص: 18).

نستطيع القول مما سبق من مفاهيم مختلفة حول مفهوم الحضارة، أن الحضارة هي مجموعة الأفكار والمفاهيم الأساسية التي تختص بالكون والإنسان والحياة، وانبعاث الأفكار لدى الإنسان تأتي بعد مرحلة الاستقرار، والتي يتفرغ فيها إلى بناء حياته وتطوير نفسه وفق ما توفر له تلك المرحلة، أما المرحلة السابقة عن ذلك فالإنسان كان منشغلاً بتأمين غذائه وحماية نفسه من المخاطر، فالعقل هو الذي أدى لتغيير مفاهيم الإنسان وجعله يتفاعل مع الحياة الجديدة، وهو الذي أخرجه من الحياة الضيقة التي كانت إلى حياة أوسع وأرحب ، وإلى التفكر في كيفية خلق حياة تتناسب مع كرامته، وبهذه العقلية استطاع الإنسان بذل الجهد لاستغلال المكونات المتنوعة والخاضعة لتسخيره والتي من حوله، وذلك في سبيل تحقيق مقومات المجتمع الإنساني، وبث أسباب الخير والسعادة فيه، وهذا ما يؤدي إلى قيام حضارة تظهر في قيام علاقات بين أفراد المجتمع والتعاون فيما بينهم، ثم ابراز مظاهر نشاطاتهم المتعددة بصورة حضارية في كافة المجالات، ويعني هذا أن الحضارة هي استغلال الإنسان لمقومات البيئة من ماء وتُربة ومناخ، وعليها تقوم الحضارة، ثم تنقسم إلى مادية وفكرية، ولابد للإثنين معاً، حتى يستفيد منها الإنسان على طول الزمان.

المصطلحات المتداخلة مع الحضارة (الثقافة والمدنية)

أولاً : الثقافة

جاء في كتب اللغة أن الثقافة من: ثقف الشيئ ثقفاً وثقافاً وثقوفة: حذقه، ورجل ثقف: حاذق فهم، ويقال: ثقف الشيئ وهو سرعة التعلم، وثقفته: إذا ظفرت به، قال تعالى: ﴿فإما تثقفنهم في الحرب﴾، والثِقاف والثقافة: العمل بالسيف، والثِقاف حديدة تكون مع القّواس والرّماح، يُقّوم بها الشيئ المعوج، وتثقيفها: تسويتها. (ابن منظور، د.ت، ج9، ص19: الرازي، 1986، ج1، ص: 36).

وقد ظهرت الثقافة أولاً بمفهوم الفلاحة أو الزراعة، ثم شملت تربية الإنسان ويدخل في ذلك أخلاق الناس وعاداتهم، ويعني هذا تثقيف وتهذيب وتنمية عقل الإنسان، وبعد ذلك تم استخدام الثقافة في ابراز طرق الحياة التي طورها الناس في المجتمع وتحتوي على أسلوب تناول الطعام أو ارتداء الملابس أو استخدام اللغة أو تبادل الحب و الزواج، وقراءة الأدب وسماع الموسيقى، بجانب الأفكار والمعتقدات والعادات والتقاليد وطرق التفكير المختلفة. (عبود، 1981، ص: 20).

إلا أن هناك من ذكر أن الثقافة ابتدأت منذ أن بدأ الإنسان يستعمل اللغة، فهي أداة الاتصال عبر الأجيال، وعلى هذا الأساس هي عبارة عن مجموعة من الأدوات بالإضافة إلى العادات والأفكار التي تعمل مباشرة أو غير مباشرة لإشباع حاجات الإنسان، وكذلك تشتمل الثقافة على النظم الاقتصادية والقانون بجانب الدين واللغة والفنون والسحر (إبراهيم، 2003، ص: 30).

وبمفهوم عام الثقافة هي مجموعة المعلومات التي يقوم عليها نظام حياة أي شعب من الشعوب، فهي على هذا أسلوب حياته ومحيطه الفكري ونظرته إلى الحياة، ولابد أن تكون خاصة به، نابعة من ظروفه واحتياجاته وبيئته الجغرافية وتطور بلاده التاريخي الحضاري، فهي إذن محلية .(مؤنس، 1978، ص: 322).

ثانياً : المدنية

يطلق العرب على لفظة الحضارة التمدن أو التمدين، أي التنعم بالإقامة في المدينة، وهي بهذه اللفظة تطابق الكلمة اللاتينية القديمة civitas جمع civitates أي التمدن من civis وهي ساكن المدينة، وعكسها الهمجية وهي باليونانية غير المتحضرين. (ماجد، 2004، ص: 10).

ونسبة لارتباط المدنية بالاستقرار فهي التغيير من حالة البداوة، وتعليم الأخلاق والسلوكيات والعادات والقوانين الطبية، بالاضافة لتعليم مختلف العلوم والفنون، وعلى هذا الأساس يمكن القول بأنها نقل الإنسان من حالة البربرية أو البدائية أو التخلف إلى حالة التنوير. (عبود، 1981، ص: 23).

لذلك اتجهت المدنية نحو السيطرة على الطبيعة واخضاع ظروف البيئة للإنسان، وبهذا المعنى تتضمن المدنية الرُقي في العلوم العملية التجريبية كالطب والهندسة والكيمياء والزراعة والصناعة والاختراع الآلي، وارتبط الرُقي بالمدنية نسبة للاستقرار في المدينة، إذ لابد للطب من مستشفيات، ولابد للهندسة من ورشة، ولابد للزراعة من حقول ومعامل لإقامة التجارب فيها. (أحمد شلبي، 1993، ج1، ص: 19).

إذن المدنية هي تراث المعرفة التطبيقية الذي يهدف إلى السمو بالإنسان والارتفاع به عن مستوى الاستسلام لظروف الطبيعة، وبالتالي هي خلاصة ما تطورت إليه الطاقة العقلية للإنسان، ومدى قدرة هذه الطاقة على التحكم في طبيعة الاشياء، فشملت جميع الخبرات العملية المتوارثة جيلاً بعد جيل في مجالات الطبيعة والكيمياء والطب والفلك وسائر العلوم التطبيقية. (الشرقاوي، 1985، ص: 18).

يتضح مما سبق وجود علاقة قوية بين مصطلحي الثقافة والمدنية ومفهوم الحضارة، وتتمثل في أشكال من السلوك والقيم التي تميز الأمة عن غيرها من الأمم، أو مجموع الصفات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية الخاصة التي تختلف في مجتمع عن الآخر وتتضمن الفنون والآداب وأساليب الحياة والانتاج الاقتصادي كما تتضمن الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات، وحسب هذا المفهوم فإن الحضارة والمدنية تُعرف بالأمور المادية وتختص بالتقدم الصناعي والزراعي الذي يستخدمه الإنسان في تطوير حياته، أما الثقافة تُعرف بالأمور المعنوية والروحية وهي تختص بالجوانب الروحية والعقلية في التطور الإنساني، ومن هذا يتضح أن الحضارة أوسع من الثقافة ولكن هما وجهان لعملة واحدة وبين الأمور المادية والمعنوية ترابط دائم في المجتمع.

وجه الشبه والاختلاف بين التاريخ والحضارة

يشتمل علم التاريخ في الماضي على معلومات عن الأنساب والقبائل وشجاعة الفرسان وكرم الحكام وأخبار عن السياسة والاقتصاد، ولكن لم يستمر هذا النهج طويلاً، بل أصبح علم التاريخ يحدد أوقات الحوادث وأساليبها وأسباب حدوثها ، وبهذا تم ربط التاريخ بكل العلوم، فكان علم التاريخ والحضارة يسيران معاً فكلاهما يهتمان بالتجربة الإنسانية.

لذلك يقول الدكتور حسين مؤنس : (تجد الفكرة الحضارية سابقة على الحركة التاريخية، والحركة التاريخية مؤدية إلى المزيد من النشاط الحضاري، أي إن التاريخ والحضارة يسيران جنباً إلى جنب، فكرة حضارية تؤدي إلى خطوة حضارية أخرى وهكذا، فلا فاصل في الحقيقة بين التاريخ والحضارة، ومن هنا نفهم كيف أن فلاسفة التاريخ في عصرنا الحديث يكتبون التاريخ ولكنهم يدرسون الحضارات ، ودراسة توينبي الشهيرة في التاريخ إنما هي دراسة مقارنة للحضارات تتوقف الحركة التاريخية أيضاً، أو تجمد الجماعة في مكانها ثم تبدأ في التدهور، وهذه هي الحضارات الموقوفة) (مؤنس، 1978، ص: 62).

من وجهة أخرى التاريخ والحضارة من العلوم التي تهتم برفع شأن الإنسان وخدمته، والحديث عن الحضارة من اختصاص أستاذ التاريخ ، فهو يوضح بعد دراسة الأحداث التاريخية في دولة ما من الدول ما قامت به هذه الدولة في مجال الحضارة، بمعنى ما فعلته للإرتقاء بالإنسان في جميع الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والصحية وغير ذلك من الجوانب (أحمد شلبي، 1993، ج1، ص: 23).

ويرى الدكتور أحمد الشريف أن دراسة التاريخ تقوم على المنهج التقليدي وهو يختص باستقصاء الحقائق وتفاصيل الجزئيات، فالمؤرخ يكتفي عادة بجانب واحد من جوانب النشاط الإنساني للعصر قيد الدراسة، أما الحضارة وحدة تاريخية متكاملة، لأن الأصول الروحية والمادية التي نشأت عليها الحضارة ظلت ثابتة في كافة العصور، فالحضارة لاتنتهج منهج التاريخ في تفسير الأحداث وتصور الماضي، بل هي تجمع بين العنصر التاريخي والعنصر الفلسفي، فهي تهتم بالنظرة الكلية التي تتبين من خلالها شخصية المجتمع الحضارية، وملامح نشاطه الإنساني في كل اتجاه من اتجاهاته، لذلك هناك علاقة قوية بين التاريخ والحضارة من حيث الاهتمام بالحياة الإنسانية في ماضيها، أما الفارق بينهما فيكمُن في تناول الماضي واستحضار معالمه وفي تصوير الظواهر والأسباب وفق منهج خاص لكل من التاريخ والحضارة (الشريف، د.ت، ص: 20-27).

كما يتضح أن الحركة التاريخية إذا قامت بدون فكرة حضارية فقد تؤدي إلى التدهور والانتكاس إلى الوراء، فلابد من إدخال الفهم الحضاري في حركة التاريخ حتى تتبين الصورة الحقيقية لحركة التاريخ، والفهم الحضاري يُسمى بالوعي الحضاري وليس من الضرورة أن نجده في عقول الجماعة بل يكفي أن تكون هناك أقلية تسمى الصفوة أو الفئة المختارة تحمل الوعي الحضاري، وهم أصلح الناس لقيادات الجماعة الإنسانية ، وقد ثبت أنه لا نهوض ولا تقدم بدون هذه الفئة، فأهل القدرة على القيادة السياسية والطموح إلى العمل السياسي قلة وكذلك أهل

التفوق في كل جانب من جوانب النشاط الاجتماعي، ونظراً لذلك فلابد من أن تتفوق هذه الفئة على غيرها بقدر ما تُعطي البقية، وهذا موجود في كل المجتمعات بغض النظر عن نشاطها السياسي (جبر، 1998، ص: 33-34).

وجاء ظهور الوعي الحضاري أو ماعُرف بالصفوة المختارة نتيجة لاتساع مجال التاريخ حتى شمل الزمن كله، ما مضى منه وما هو حاضر وما هو مقبل، وكذلك اتسع موضوعه وزاد عمقه حتى أصبح يشمل التجربة الإنسانية كاملة ، فلم يقتصر على الأحداث السياسية والعسكرية بل شمل التطورات الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والفنية ، واتجه المؤرخ لدراسة أحوال البشر عامة وتطور الجماعة الإنسانية في مجموعها، وأصبح المؤرخ كأنه ضمير الإنسانية الواعي يرقب كل شيئ ويدرس كل ما يهم الناس في مجتمعاتهم (مؤنس، 1978، ص: 63).

يتضح مما سبق أن التاريخ والحضارة علمان متلازمان مترابطان، فلا يمكن فهم التاريخ بدون الحضارة ولا الحضارة بدون التاريخ لأن كل علم يكمل الآخر، فالتاريخ يبحث في دراسة الأحداث بصورة مجزأة وليست كاملة بمعنى أن المؤرخ ينظر للأحداث من زاوية واحدة ولايهتم بالزوايا الأخرى التي نعرف من خلالها نشاطات الإنسان في مجتمعه، أما الحضارة فتبحث بصورة فلسفية تحليلية لما حدث للإنسان في الماضي وتخطط لمستقبله، فهي تستفيد من الماضي في الحاضر ثم المستقبل، فالقاسم المشترك بينهما هو التجربة الإنسانية ، والفاصل بينهما اتباع منهج محدد لدراسة هذه التجربة.

خاتمة

تناول هذا المقال مفهوم التاريخ والحضارة، وعمل على توضيح ما هو مشترك وما هو فاصل بينهما، فالمشترك بينهما هو الإنسان ودراسته من الماضي وإبراز ما لديه من نشاطات واختراعات أفادته في الماضي وتفيده في الحاضر ويعمل على تطوير جميع نواحي حياته لتستفيد منها الأجيال القادمة، فكل من التاريخ والحضارة يهتم بالإنسان ولكن كل علم ينظر له برؤية مختلفة عن الآخر، فالتاريخ رؤيته مجزأة والحضارة رؤيتها متكاملة وهذا هو الفاصل بينهما، لذلك التاريخ يحدد وقت حدوث النشاط الإنساني أو الظواهر الطبيعية، وبالتالي يوضح كيف استطاع الإنسان أن يستفيد من البيئة التي حوله في تطوير نفسه وغيره، أما الحضارة فهي مجموعة الأفكار والمفاهيم الأساسية التي تربط بين جميع الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعسكرية لمعرفة التجربة الإنسانية التي كانت في الماضي لفهمها في الحاضر وعلى أساس ذلك يمكن توقع المستقبل ومعرفة اتجاهاته وسياساته، وفي آخر الأمر التاريخ جزء من الحضارة كما أن الحضارة جزء من التاريخ.

المصادر والمراجع

إبراهيم، رجب عبد الجواد (د.). 2003. **ألفاظ الحضارة في القرن الرابع الهجري**. القاهرة: دار الآفاق العربية.

ابن بشر، عثمان بن بشر. د.ت. **عنوان المجد في تاريخ نجد**. الرياض: مكتبة الرياض الحديثة.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد ولي الدين. 1993. **المقدمة**. بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. د.ت. **لسان العرب**. بيروت: دار صادر.

أبو خليل، شوقي. 1993. **الحضارة العربية الإسلامية**. طرابلس: كلية الدعوة الإسلامية.

الألوسي، محمود شكري. 1414. **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**. صححه محمد بهجت الأثري. بيروت: دار الكتب العلمية.

بدر، أحمد (د.). 2002. **الحضارة العربية الإسلامية**. دمشق: منشورات جامعة دمشق.

البستاني، الشيخ عبدالله. 1980. **الوافي**. بيروت: مكتبة لبنان.

بطاينة، محمد ضيف الله (د.). 1985. **في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية**. عمّان: دار الفرقان.

البوطي، محمد سعيد رمضان. 1987. **منهج الحضارة الإسلامية في القرآن**. دمشق: دار الفكر.

الجبرتي، عبد الرحمن حسن.1322 .**عجائب الآثار في التراجم والأخبار**. المطبعة العامرة الشرفة.

جبر، حسن (د.). 1998. **أسس الحضارة العربية الإسلامية ومعالمها**. القاهرة: دار الكتاب الحديث.

الحلواني، سعد بدير (د.) .1999. **مدخل إلى علم التاريخ**. أبها: مكتبة جامعة الملك خالد.

ديورانت، ول. 1949. **قصة الحضارة**. ترجمة زكي نجيب محمود. القاهرة: الإدارة الثقافية.

الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر. 1986. **مختار الصحاح**. بيروت: مكتبة لبنان.

السخاوي، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن. 1349. **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ**. دمشق.

السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر. د.ت. **الشماريخ في علم التاريخ**. بيروت.

الشرقاوي، عفت (د.). 1985. **في فلسفة الحضارة الإسلامية**. بيروت: دار النهضة العربية.

الشريف، أحمد إبراهيم (د.). د.ت. **دراسات في الحضارة الإسلامية**. القاهرة: دار الفكر العربي.

شاكر، محمود. 1985. **التاريخ الإسلامي**. بيروت: المكتب الإسلامي.

شلبي، أبوزيد (د.). 2004. **تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي**. القاهرة: مكتبة وهبة.

شلبي ، أحمد (د.) . 1993. **موسوعة الحضارة الإسلامية** . القاهرة : مكتبة النهضة العربية .

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. 1967. **تاريخ الأمم والملوك**. بيروت: دار الفكر.

عبود، عبدالغني (د.). 1981. **الحضارة الإسلامية والحضارة المعاصرة**. القاهرة: دار الفكر العربي.

الفوزان، عبدالرحمن بن إبراهيم (د.). 2005. **المعجم العربي بين يديك**.الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية.

الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. 1994. **القاموس المحيط**. إشراف محمد نعيم العرقسوسي بيروت: مؤسسة الرسالة.

الفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقري. 1978. **المصباح المنير**. بيروت: دار الكتب العلمية.

الكروي، إبراهيم سليمان (د.). 1984. **المرجع في الحضارة العربية**. الكويت: منشورات ذات السلاسل.

لوبون، غوستاف (د.). 1969. **حضارة العرب**. ترجمة محمد عادل زعيتر. القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشُركاه.

ماجد، عبدالمنعم (د.). 2004. **تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى**. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

محل، سالم أحمد (د.). 1997. **المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب**. الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

مؤنس، حسين (د.). 1978. **الحضارة**. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

النبراوي، فتحية عبد الفتاح (د.). 2000. **علم التاريخ دراسة في مناهج البحث**. جدة: الدار السعودية للنشر والتوزيع.

أنيس، إبراهيم (د.). 1960. **المعجم الوسيط**. القاهرة.

ياسين، مأمون (د.). 1992. **الأسس البنيوية في الحضارة الإسلامية**. دمشق: دار الهجرة.

ياغي، إسماعيل أحمد (د.). 2001. **الحضارة الإسلامية وأثرها على الغرب**. الرياض: مكتبة العبيكان.